من تراب الطريق (٤٥٢) لماذا الحصانة للمحامين؟(*)

واجب ولا شك على نقابة المحامين أن ترعى تقاليد المحاماة ، وأن تحث على المحافظة عليها ، وأن تحاسب على الخروج عنها ، لأن ذلك هو الذى يحفظ للمحاماة احترامها الواجب فى عين نفسها ، وفى عيون الناس والسلطات . يقابل هذا الواجب واجب على المجتمع وكافة آلياته وأجهزته وسلطاته فى احترام المحاماة والمحامين الذين زادت حوادث التجاوز معهم والتعرض لهم هذه الأيام . توفير الحصانة للمحامين ليس محاباة ولا مجاملة ، وإنما هو تحصين للعدالة ذاتها ولحقوق الناس التى ينهض المحامون للدفاع عنها حين تتعرض للعدوان أو الإهدار ..

من سنوات كتبت للأهرام عن الحصانة الواجبة للمحامى لقاء ما يتعرض له من مخاطر ، وضمنته فيما بعد كتاب : «رسالة المحاماة» ، أن الحقيقة قد لا تصل إلى القاضى سهلة ميسورة ، بل قد لا تصل إليه على الإطلاق ، وقد يقيض لها من طلاب الزيف والبهتان من يحجبونها حجبًا كثيفًا ، وأن يطمسوا عليها ويطمسوا أدلتها ، وقد يصطنعون أدلة كاذبة للإيحاء بغير الحقيقة ، بينما القاضى على منصته العالية ـ مع تقيده بحدود الخصومة ـ غير متاح له أن يطلع على ما جرى ويجرى وراء أستار الخفاء !

حُجُب الخفاء لطمس الحقيقة وإدخال الزيف عليها ـ تصاحب الخصومة ربما من منبتها ـ فيحتال رجل الضبط لإهدار الشرعية الإجرائية ، والافتئات

(*) المال ٣١/ ٥/ ٢٠١٠ .

بغير سند مشروع على حريات ومستودعات أسرار الناس ، وكثيرا ما يلازم ذلك قبض وتفتيش باطلان ، أو انتزاع اعتراف بالقسر والضغط والتعذيب والإرغام ، وهى وسائل من المحال معها أن تطمئن عدالة عادل إلى صدق الاعتراف ومطابقته للواقع ، سيما وهو كريه إلى النفس ، لا تقبل عليه ـ إن أقبلت! إلاّ مضطرة ، وتغدو صعوبة إثبات الإكراه للحمل على الاعتراف ، فى أنه قد يقف عند حد الإكراه المعنوى ولا يتعداه إلى إكراه مادى يمكن أن يترك علامات ، وقد تعددت فنون الإكـراه المادى وابتدعت فيه أساليب شيطانية لا تترك أثرًا يدل عليهـا ، فتغدو مهمة القاضى فى جميع هـذه الأحوال مهمة بالغة العسر بـل والاستحالة ، لأن التعذيب فضلًا عـن فنونه المستحدثة ـ يجرى على «أرض» أو «ملعب» فاعليه ، محدود بحدود يتحكمون فيها مكانًا وزمانًا وشهودًا ، حتى ليكاد القاضى يحسه ويلمسـه ولكـنه لا يمسك دليـلًا عليه!! .. هنالك تبدو وتتجلى إبداعات المحاماة التى تستطيع أن تهدى إلى الحقيقة بجمع الأدلة من مظانها ، واستخراج الدلالات والقرائن ، واستنباط المجهول من واقع معلوم يدل عليه .. على أن هـذه المهمة التى يجاهـد المحامى مجاهدة صعبة فيهـا ، محفوفة بأخطار الوقوع فيما قد يمسكه عليه رجل الضبط الذى من مصلحته أن يتصيد زلة لسان أو جمـوح عبارة أو سخونـة وصف ـ ليدمغه بالسب والقذف أو البلاغ الكاذب !! ومن ثمّ يعرض المحامى الباذل فـى إخلاص لمغبة المساءلـة الجنائية عما عساه يمسكه عليه فى سعيه الدءوب لكشـف الحقيقة للقاضى !!

وليس حال شهود الدعوى بأيسر أو أهون مكابدة فى المعالجة من إجراءات الضبط ، فليس كل الشهـود على شاكلة واحدة ، أو من معدن

واحد .. منهم الصادق والكاذب ، ومنهم المستقيم والملتوى ، ومنهم المتجرد والمغرض ، ومنهم المحايد والمنحاز ، ومنهم الأمين والخائن ، ومنهم البرىء والخبيث ، وهم على أشكال شتى ، وأغراض شتى ، ومعادن شتى .. بل إن أكثر الناس للحق والإنصاف كارهون ، وبذلك وصفهم القرآن المجيد فقال : ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون] ... ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف].. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] ، ومنهم من يجادل فى الباطل ولا يستحى من الحق كالذين وصفهم القرآن الحكيم فقال : ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال] .. ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩] .. ومنهم من يجترئون على الكذب والزور ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢] .. فماذا يفعل القاضى إزاء هذه النوعيات بينما أوصاه القرآن ألاّ يقبل إلاّ شهادة ذوى العدل والصدق والاستقامة والأمانة ، فقال عز من قائل : ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] .. على أن حرص القاضى على الاستشهاد بذوى العدل تقابله ظلال كثيفة على المحامى أن يجليها ، وجلاؤها يمض ويوجع من يكشف الدفاع ستر كذبه أو خداعه أو ميله أو هواه أو بهتانه أو تزييفه أو تزويره أو انحيازه أو حنثه بيمينه ، وإزاحة الستار عن هذا وذاك محفوفة هى الأخرى بالمخاطر ، يغدو أمامها المحامى كالقافز فوق الأشواك ، سواء فيما يجب أن يستقصيه ويحصله ويفسره ويكيفه ، أم فيما يلقيه أمام النيابة أو القضاء من قول وحجة وبرهان لإثبات ما يمسكه على رجل الضبط أو الشاهد ويعريه به .. وهذا بدوره باب ملىء بالمخاطر والألغام ، فلن يرضى الشاهد أن ينعته

المحامى بما كشفه من ستره ، ولن يوافقه أن يفضح أمره ويعرى كذبه وزوره والتواءه ، وما أيسر أن ينازل المحامى ـ بأنه وقع فى وهدة السب أو القذف أو البلاغ الكاذب ، فيغدو سيف الخطر مشهرًا عليه فى جميع أحواله : محققًا أو مستقصيًا أو باحثًا أو مترافعًا !!

بل إن خطاب المحامى للنيابة أو للمحكمة ، لا يخلو من مخاطر زلل اللفظ أو تجاوز العبارة التى ربما عرضته للمسئولية ـ لأنه وهو يسعى للإقناع بما اقتنع به ووقر فى خلده ، لا يتحدث حديث المحاضر الهادئ ، وإنما يتكلم بحماس وتأثر وانفعال المدافع المندمج فى قضيته المتفاعل معها الشاعر بأوجاع موكله وبالمخاطر التى يمكن أن تحدق به ، والحانق أيضًا على تراكمات الزيف والزور والحجب والطمس والالتواء التى يسلكها أعداء الحق الرامون لتزييف الحقيقة والافتئات على الأبرياء أو الكيل لهم بمكاييل بعيدة عن سنن العدل والإنصاف ـ هذه المهمة الدقيقة لا يؤديها المحامى ساكن النفس هادئ الخاطر أو متبلد الفؤاد ، وإنما هى شحنة من المشاعر تموج فى صفحة وجدانه وتصاحبه فيما يقول ويومئ ويفعل .. وليس يدرك هذه المكابدة إلاّ من يعانيها ، وهى مكابدة تفتح على المحامى أبوابًا هائلة من المحاذير والأخطار ، كم أوذى بها ومنها محامون ، وكم انتهت الحيوات المهنية لمحامين ، وكم دخل بسببها محامون فى أقضيات انتقلوا فيها من موقع المحاماة إلى موقف الاتهام ، فبذلوا من مصالحهم ومهنتهم وحاضرهم ومستقبلهم ما ترويه مجلدات حكت سير المحامين العظام ـ لعل من أكثرها دلالة سيرة المحامى الفذ مارشال هول ، وأسلاف عظام تحمل سيرهم مدونات سير المحامين المصريين . خاض الأسلاف العظام معارك ضارية استرخصوا فيها

مصالحهم وحرياتهم وحيواتهم قبل أن تلتفت المدونات التشريعية لإقامة سياج من الضمانات لحماية المحامى وحق الدفاع ـ هذا السياج هو فى حقيقته حماية للعدالة قبل أن يكون حماية لشخص المحامى ، لأن المحامى المرتجف لن يقدر على حمل هموم البشر ناهيك بالمناضلة الصادقة من أجلها ـ وهذه هى رسالة المحاماة !

*****